[حُسْنُ الْـمُعَامَلَةِ وَفَوَائِدُهُ] الجمعة الثالثة من شهر محرم

اَلْخُطْبَةُ الْأُولَى:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، اَلْفَرْدِ الصَّمَدِ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، نَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَمْدَ الشَّاكِرِينَ لِأَنْعُمِهِ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، أَمَرَ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ فَقَالَ وَهُوَ الصَّادِقُ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْـمَحْمُودُ فِي سِيرَتِهِ: فِعْلِهِ وَمَقُولِهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ، وَأَصْحَابِهِ نُجُومِ الْهُدَى وَبُدُورِ الِاقْتِدَاءِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ فِي حُسْنِ الْأَدَاءِ وَحُسْنِ الِاقْتِضَاءِ.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي الْإِيمَانِ، تَحَدَّثْنَا فِي الْخُطْبَةِ السَّابِقَةِ عَنْ جَانِبٍ مَنْ جَوَانِبِ الْحِرْصِ عَلَى أَكْلِ الْحَلَالِ؛ وَذَلِكَ بِالْإِخْلَاصِ فِي كُلِّ عَمَلٍ مَأْجُورٍ أَوْ خِدْمَةٍ مَأْجُورَةٍ. وَالْيَوْمَ نَتَنَاوَلُ جَانِبًا آخَرَ مِنْ هَذَا الْحِرْصِ عَلَى أَكْلِ الْحَلَالِ؛ وَذَلِكَ بِالْحِرْصِ عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي الْـمُعَامَلَاتِ التِّجَارِيَّةِ وَغَيْرِهَا.

عِبَادَ اللَّهِ؛ إِنَّ الْـمُعَامَلَةَ بَابٌ وَاسِعٌ يَشْمَلُ كُلَّ عَلَاقَةٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ؛ لِأَيِّ سَبَبٍ كَانَتْ تِلْكَ الْعَلَاقَةُ؛ مِنْ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ، وَإِجَارَةٍ وَكِرَاءٍ، وَزَوَاجٍ وَجِوَارٍ، وَشَرَاكَةٍ وَوَظِيفَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَوْجُهِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْآخَرِينَ؛ فَيُطَالَبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِحُسْنِ أَدَاءِ وَاجِبِهِ مَعَ النَّاسِ؛ بِحَيْثُ يَرْفُقُ بِهِمْ، وَيُسَهِّلُ قَضَاءَ حَوَائِجِهِمْ، مَا دَامَ فِي وُسْعِهِ إِسْعَافُهُمْ؛ رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (آخِرُ مَا أَوْصَانِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ وَضَعْتُ رِجْلِي فِي الْغَرْزِ – أَيْ فِي الرِّكَابِ – أَنْ قَالَ: «أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ»). وَذَلِكَ لَـمَّا بَعَثَهُ وَالِيًا عَلَى الْيَمَنِ.

وَحُسْنُ الْـمُعَامَلَةِ هُوَ: جُمْلَةٌ مَنَ الْأَخْلَاقِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي يَحْيَى بِهَا الْـمُسْلِمُ، وَبِهَا يُحَقِّقُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ السَّعَادَةَ الدُّنْيَوِيَّةَ وَالْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ، كَمَا يُؤْجَرُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ بِأَحْسَنَ مِنْهَا؛ إِذِ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الِاحْسَانِ إِلَّا الِاحْسَانُ﴾.

وَأَوَّلُ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ: اَلْـمَحَبَّةُ لِلنَّاسِ؛ فَمَنْ أَحَبَّ النَّاسَ أَحَبَّ لَهُمُ الْخَيْرَ؛ وَمُقْتَضَاهُ أَلَّا يَغُشَّهُمْ وَلَا يَخُونَهُمْ فِي الْـمُعَامَلَةِ؛ وَذَلِكَ مِنْ كَمَالِ إِيمَانِهِ، وَيَعُودُ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ بَيْنَ إِخْوَانِهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ).

ثَانِيهَا: اَلصِّدْقُ؛ وَهُوَ الَّذِي يُبَارَكُ اللَّهُ بِهِ فِي الْـمُعَامَلَةِ؛ فَيُقَوِّيهَا وَتَسُودُ الثِّقَةُ بَيْنَ النَّاسِ وَتَعُمُّ، وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ عَلَى حَقِّهِ وَيُؤَدِّي وَاجِبَهُ بِكُلِّ يُسْرٍ وَسُهُولَةٍ، وَتَحْصُلُ لَهُ الْبَرَكَةُ فِيمَا أَخَذَ أَوْ أَعْطَى؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (اَلْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا).

ثَالِثُهَا: اَلسَّمَاحَةُ وَالْيُسْرُ، وَعَدَمُ التَّعْسِيرِ فِي الْأُمُورِ الْبَسِيطَةِ وَالْيَسِيرَةِ؛ فَالْـمُعَامَلَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْعَفْوِ عَنِ الشَّيْءِ الْيَسِيرِ وَعَدَمِ الْـمُشَاحَّةِ فِيهِ؛ وَلِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا سَمْحًا إِذَا بَاع...) وَمَعْنَى (سَمْحًا)؛ أَيْ: سَهْلَ الْخُلُقِ طَيِّبَ النَّفْسِ، يَتَعَامَلُ مَعَ النَّاسِ بِرِفْقٍ وَلِينٍ وَطَلَاقَةِ وَجْهٍ؛ فَيَحْظَى – وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَذَا الْخُلُقِ - بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِالرَّحْمَةِ؛ وَأَنْعِمْ بِهَا مِنْ مُكَافَأَةٍ، رَحْمَةٍ تَشْمَلُ نَفْسَهُ وَوَلَدَهُ وَرِزْقَهُ وَآجِلَتَهُ وَعَاجِلَتَهُ.

رَابِعُهَا: اَلْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ؛ فَمِنَ الْأُمُورِ الْـمَطْلُوبَةِ عِنْدَ الْـمُعَامَلَةِ: اَلْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: (وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ...). وَمِنْ ذَلِكَ: اَلدُّعَاءُ مِنَ الْـمُتَبَايِعَيْنِ لِبَعْضِهِمَا بِالْبَرَكَةِ وَالرِّبْحِ وَالْخَلَفِ فِي الْـمَالِ؛ وَهِيَ مُفْرَدَاتٌ تَرَسَّخَتْ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ فِي ثَقَافَةِ النَّاسِ؛ كَقَوْلِهِمْ لِبَعْضِهِمْ: (اَللَّهْ يْرَبِّحْ، اَللَّهْ يَخْلِفْ)، وَغَيْرِهَا مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي بَدَأْنَا نَفْقِدُهَا الْيَوْمَ فِي مُعَامَلَاتِ الْبَعْضِ؛ إِذْ يَقْبِضُ مَالًا أَوْ يَدْفَعُ سِلْعَةٍ وَلَا يُحْسِنُ كَلِمَةً طَيِّبَةً، وَلَا طَلَاقَةَ وَجْهٍ، وَلَا دَعْوَةً بِالْبَرَكَةِ.

خَامِسُهَا: اَلنُّصْحُ فِي الْـمُعَامَلَةِ؛ بِحَيْثُ تُفَكِّرُ فِي مَصْلَحَةِ صَاحِبِكَ كَمَا تُفَكِّرُ فِي مَصْلَحَتِكَ، وَتَنْصَحُ لَهُ فِيمَا يَنْفَعُهُ وَيَنْفَعُكَ، لَا فِيمَا يَنْفَعُكَ وَحْدَكَ؛ لِقَوْلِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ).

عِبَادَ اللَّهِ؛ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ وَغَيْرِهَا يُؤْتِي حُسْنُ الْـمُعَامَلَةِ ثِمَارَهُ وَفَوَائِدَهُ فِي حَيَاةِ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ؛ حَتَّى يَعِيشُواْ جَمِيعًا اِلحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ الْـمَوْعُودَةَ.

نَفَعَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِقُرْآنِهِ الْـمُبِينِ، وَبِحَدِيثِ سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ.

اَلْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ وَلِيِّ الصَّالِحِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ اِلصَّادِقِ الْأَمِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

عِبَادَ اللَّهِ؛ نَسْتَحْضِرُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ هِجْرَةَ الرَّسُولِ ﷺ بِمُنَاسَبَةِ الْعَامِ الْهِجْرِيِّ الْجَدِيدِ؛ وَهِيَ مُنَاسَبَةٌ عَظِيمَةٌ تُذَكِّرُ بِتَضْحِيَاتِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَا عَانَاهُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُ مِنْ بَلَدِهِ، وَقَدْ لَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَانِيَ الْهِجْرَةِ فِي قَوْلِهِ: (وَالْـمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ). وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ نَصِيبَنَا نَحْنُ مِنَ الْهِجْرَةِ هُوَ هِجْرَةُ الْـمَعَاصِي، وَمِنْ أَخْطَرِهَا: مَا تَنَاوَلْنَاهُ فِي الْخُطْبَةِ الْأُولَى مِنْ وُجُوبِ تَجَنُّبِ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ عَنْ طَرِيقِ الْغِشِّ أَوِ السَّرِقَةِ أَوِ الرَّشْوَةِ أَوِ الْغُلُولِ؛ وَهُوَ أَخْذُ الْـمَالِ الْعَامِّ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ، وَكُلِّ وَجْهٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ.

وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ يَحْرِصُ الْـمُؤْمِنُ عَلَى أَكْلِ الْحَلَالِ، وَالصِّدْقِ فِي الْـمُعَامَلَةِ، وَالنُّصْحِ لِلنَّاسِ أَخْذًا وَعَطَاءً، قَضَاءً وَاقْتِضَاءً، بَيْعًا وَشِرَاءً؛ لِيَنَالَ رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى الَّتِي وَعَدَ بِهَا الْـمُتَسَامِحِينَ فِي الْـمُعَامَلَاتِ، وَعَفْوَهُ تَعَالَى عَمَّنْ يَعْفُو عَنِ النَّاسِ.

وَيَتَحَقَّقُ ذَلِكَ بِمَضْمُونِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ...). أَيْ: مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ وَتَوَجُّهُهُ وَغَايَتُهُ فِي كُلِّ تَصَرُّفَاتِهِ يَقْصِدُ بِهَا وَجْهَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُضِيعُ أَجْرَهُ وَثَوَابَهُ؛ وَهَذَا الْحَدِيثُ يَجْعَلُ الْـمُؤْمِنَ فِي هِجْرَةٍ دَائِمَةٍ وَإِقْبَالٍ مُسْتَمِرٍّ عَلَى اللهِ تَعَالَى، مَأْجُورًا عَلَى كُلِّ أَعْمَالِهِ؛ عَقِيدَةً كَانَتْ، أَوْ عِبَادَةً، أَوْ مُعَامَلَةً، أَوْ سُلُوكًا.

ألا فاتقو الله؛ وَأَكْثِرُواْ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى الْهَادِي الْأَمِينِ وَالسِّرَاجِ الْـمُنِيرِ؛اَللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَدَدَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، إِلَى مَا شِئْتَ مِمَّا لَا حَدَّ لَهُ مِنْ صَلَاةٍ وَتَسْلِيمٍ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ؛ خُصُوصًا مِنْهُمُ الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَانْصُرِ اللَّهُمَّ مَنْ قَلَّدْتَهُ أَمْرَ عِبَادِكَ؛ وَلِيَّ أَمْرِنا خَادمَ اَلحَرَمَينِ الشْرِيفَينِ نَصْرًا عَزِيزًا تُعِزُّ بِهِ الدِّينَ، وَتَرْفَعُ بِهِ رَايَةَ الْـمُسْلِمِينَ، اَللَّهُمَّ اجْعَلْ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَجْعلهُ يَرْفُلُ فِي حُلَلِ الصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ، اَللَّهُمَّ أَقِرَّ عَيْنَهُ بِوَلِيِّ عَهدهِ إِنَّكَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، اَللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مُتَحَابِّينَ مُتَنَاصِحِينَ مُتَعَامِلِينَ بِالْحُسْنَى، مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، مُتَسَامِحِينَ فِي الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ، مُهَاجِرِينَ إِلَيْكَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، وَتَعَرُّضًا لِعَفْوِكَ وَغُفْرَانِكَ، اَللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يُرْضِيكَ، رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَّدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا، سُبْحَانَ رَبِّك رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْـمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ.